

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة السادسة العدد الثامن العام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م



القلب المكاني

الدكتور محمد العُمــرى*

* حصل على الدكتوراه من جامعة أم القرى من قسم الدراسات العليا العربية في فقه اللغة عمل وكيلاً لعميد معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى ثم عميداً للمعهد بعد ذلك يعمل حالياً رئيسا لقسم اللغة والنحو والصرف بكلية اللغة العربية الأبحاث:
١ ـ تحقيق كتاب المُنتخب لكُراع النمل ويقع في مجلدين طبع بمعهد البحوث بالجامعة .
٢ ـ تحقيق كتاب المُجَرّد لكراع النمل صدر منه الجزء الأول .

ملخص البحث

إن موضوع القلب المكاني من الموضوعات التي تضرب بجذور عميقة في تراثنا العربي وقد خصه النحاة بالبحث ، وتناوله الصرفيون في مصنفاتهم ولم يهمله اللغويون ؛ لذلك كان من الموضوعات التي نُظر إليها من عدة جهات ، وهذا البحث يستعرض هذه الظاهرة كما صورتها كتب التراث ، وقد حددت الحديث في هذا الموضوع على النحو التالي :

أولاً : القلب المكاني الذي خصصت له هذا البحث وهو القلب الذي يسميه النحاة لغات ، ويسميه اللغويون قلبا كجَذَبَ وجَبَذَ ، وقد أبنت نوعين من القلبين ، وكان الحديث في واحد منهما .

ثانيا : ـ قمت في هذا البحث بعرض ظاهرة القلب كما صورتها كتب التراث نحوية كانت أو صرفية أو لغوية ، وقد نوقشت بعض الأراء التي رآها بعض العلماء وخاصة في تلك الأمثلة التي يرى النحويون والصرفيون أنها من اللغات وليست من القلب المكاني .

ثالثا : ـ وممن أدلى بدلوه في هذا الموضوع العلماء المحدثون من عرب ومستعربين وقد عرضت جملة من أقوال هؤلاء وأولئك ، كما أنني ألمحت إلى أن هذه الظاهرة ليست مما اختصت به العربية وإنما يقع في اللغات الأخرى.

رابعا : ـ من خلال الوقوف على هذا الموضوع وعلى أمثلته وجدت أنه قديما مما يدخل في باب الصرف فتكلم عنه الصرفيون ، وأيضا لم يهمله النحويون . وبعرض الموضوع على الرأي الحديث في الدرس اللغوي استطاع علم الأصوات أن يضم هذا الموضوع إلى موضوعاته ، فاتضح أنه موضوع صوتي .

وقد انتهيت في البحث إلى رأي جديد في تفسير موضوع القلب وكيفية وقوعه وبعض الأسباب المؤدية إليه ، وأحسب أن أحدا لم يسبقني إلى تطبيق هذا الرأي على النحو التوضيحي الذي سيراه القارىء في آخر البحث .

وفي الختام أسأل الله أن ينفع بهذا العمل وأن يجنبنا العجب بما نحسن والادعاء لما لا نحسن والله المستعان وعليه الاعتماد والتكلان .

القلب المكاني

يتصدر القلب المكاني الموضوعات التي تهتم بها كتب اللغة التي تتناول أبواباً مختلفة في اللغة ، كالمشترك اللفظي ، والمترادف ، والأضداد ، ويجد القلب المكاني متسعا في مصنفات النحو والصرف في التراث القديم .

كذلك لم تخل بحوث المحدثين أيضاً من التعرض لهذه الظاهرة ، فمنها مايشير إليها إلماحاً ، ومنها مايقف عندها وقفة يشعر القاريء لأول وهلة بأن الموضوع قد استوفى حقه من البحث .

وقد أطلت النظر في هذه الظاهرة ، ونقّبت عنها في مظانها وفي غير مظانها ، ورأيت أنها تستحق من الباحث أن يخصها بشيء من جهده العلمي ، وسأقدم للقاريء مقدمة مختصرة لمقاصد البحث الذي سأعده عن هذه الظاهرة .

أولاً :

سأبدأ خطتي في الدراسة بتحديد نوع القلب الذي سيكون موضوع هذه الدراسة ؛ لأن هناك نوعين من القلب هما :

الأول :

القلب الصحيح ـ كما يقول البيصريون[1] ـ مثل شَاكِي السِّلاح وشَائِكِ ، وجرف هارٍ وهائر .

الثاني :

القلب الذي يسميه البصريون لغات ، ويعده الكوفيون قلباً كجَذَبَ وجَبَذَ ، وهذا النوع من القلب هو مدار هذا البحث .

ثانياً :

سأقوم بعرض هذه الظاهرة من خلال بعض كتب التراث التي تناولتها سواء أكانت نحوية أم صرفية أم لغوية ، ومن ثم التعرف على آراء كل منهم من واقع

---

(١) ينظر المزاهر ١ / ٤٨ .

الأمثلة التي يعرضونها في مصنفاتهم ، فإذا عَنَّ لنا مايمكن قوله عند عرض هذه الأقوال ، فسنضع ذلك أمام عين القاريء .

ثالثاً :

لاشك أن القلب المكاني مما وقفت عنده أقلام الدارسين المحدثين ، ومن الضرورة عرض ماقالته بعض هذه الدراسات ، سواء أكان ذلك تفسيراً لهذه القضية في إطار لغة واحدة (العربية) أم في ضوء اللغات الأخرى ؛ لأن القلب يقع في اللغات ، وليس مما تميزت به العربية دون سواها .

رابعاً :

بعد عرض الموضوع قديماً وحديثاً فإنا سنقول ما يفتح الله به علينا في هذه الظاهرة ، وذلك بعد أن تكتمل أمامنا جملة من الآراء ـ قديمها وحديثها ـ ، ونسأل الله أن يمن علينا بما يطمع إليه كل باحث من آراء جديدة ، ونسأله أن يجعل ذلك مما يلقى القبول لدى المهتمين بالدراسات اللغوية .

القلب المكاني بين اللغويين والنحويين

قبل التعرف على رأي الفريقين في القلب يجب تقديم تعريف للقلب لغة واصطلاحاً ؛ لأن ذلك بمثابة التحديد لمعنى هذا المصطلح .

فالقلب لغة : تحويل الشيء عن وجهه(١) .

والقلب اصطلاحاً :

تقديم بعض حروف الكلمة على بعض(٢) ، أما الآراء في هذه القضية فقد طالعتنا النصوص القديمة بطائفتين مختلفتين في القلب ، فمن النصوص ماذكر أن الخلاف في القلب بين البصريين والكوفيين ، ومن النصوص ما يشير إلى أنه مما اختلف فيه النحاة واللغويون . وفيما يلي بعض هذه النصوص :

قال السيوطي في المزهر(٣) :

---

(١) اللسان (قلب)

(٢) شرح الشافية ١ / ٢١

(٣) ١ / ٤٨١

« وقال النحاس في شرح المعلقات : القلب الصحيح عند البصريين مثل : شَاكِي السلاح وشَائِكٍ ، وجرفٍ وهائرٍ ، وأما مايسميه الكوفيون القلب نحو جَبَذَ وجَذَب ، فليس هذا بقلب عند البصريين ، وإنما هما لغتان ، وليس بمنزلة : شاكٍ وشائكٍ ، ألا ترى أنه قد أخَّرْتَ الياء في شاكي السلاح »[1] .

ويقول ابن درستويه[2] : « في البِطّيخ لغة أخرى : طِبِّيخ ، بتقديم الطاء ، وليست عندنا على القلب كما يزعم اللغويون » .

ويقول السخاوى في شرح المفصل[3] : « إذا قلبوا لم يجعلوا الفرع يلتبس بالأصل بل يقتصر على مصدر الأصل ، ليكون شاهدا للأصالة نحو يَئِسَ يأسا ، وأيِسَ مقلوب منه ولا مصدر له ، فإذا وُجِدَ المصدران حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل ، وليس بمقلوب من الآخر ، نحو جَبَذَ وجَذَبَ ، وأهل اللغة يقولون : إن ذلك كله مقلوب .

ويقول ابن دريد[4] : « باب الحروف التي قُلِبت وزعم قوم من النحويين أنها لغات قال أبو بكر : وهذا القول خلاف على أهل اللغة والمعرفة » .

هذه أربعة نصوص وقفنا عليها ، منها نص واحد جعل القلب قضية خلاف بين البصريين والكوفيين ، وهو النص المنقول عن ابن النحاس في حين أن النصوص الثلاثة الأخرى تجعل القلب مسألة خلافية بين النحويين واللغويين ، لهذا نرى أنها مما وقع الخلاف فيه بين النحاة واللغويين ، ولا يغير هذا في مسار البحث ، لأن الذي يهمنا هو مناقشة أمثلة القلب مع عدم التركيز على فريقي الخلاف فيها ، نعم قد يهمنا أمر من يقول : إن جذب من القلب في حين يقول آخرون بأنها لغات .

لقد انقسم القدماء تجاه أمثلة القلب إلى فريقين :

الأول : يقسم أمثلة القلب إلى قسمين ، قسم مما يعد من القلب المكاني ، وهو كل صورتين لاتتساويان في التصرف ، كأن يقع القلب في الفعل ولا يقع في

---

(١) ينظر نص النحاس في شرح القصائد التسع ١ / ٣٣٩ ـ ٣٤٠

(٢) ينظر المزهر ١ / ٤٨١

(٣) المصدر السابق

(٤) جمهرة اللغة ٣ / ٤٣١

المصدر ،وقسم لايعد من القلب ، وذلك في الأمثلة التي تتساوى في التصرف كأن يقع القلب في كلا الصورتين في الفعل واسم الفاعل والمصدر واسم المفعول ، وكل ماكان من هذا القبيل يعدونه من اللغات بحجة التساوى في التصرف .

الثاني : يعد كل كلمة وقع فيها القلب سواء - أتساوى تصرف صورتيها أم لم يتساو - من القلب المكاني وبهذا تتسع عند هذا الفريق دائرة القلب المكانى لتشمل أمثلة يخرجها الفريق السابق من دائرة القلب .

ونمثل لرأي الفريق الأول بما قاله ابن جني في الخصائص[1] :

اعلم أن كل لفظين وجد فيهما تقديم وتأخير فأمكن أن يكونا جميعا أصلين ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه فهو القياس الذي لايجوز غيره وإن لم يكن ذلك حكمت بأن أحدهما مقلوب عن صاحبه ، ثم رأيت أيهما الأصل ، وأيهما الفرع ، وسنذكر وجوه ذلك .

فمما تركيباه أصلان لاقلب فيهما قولهم : جذب ، وجبذ ، ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه ، وذلك أنها جميعا يتصرفان تصرفا واحداً ، نحو : جذب يجذب جذبا فهو جاذب ، والمفعول مجذوب وجبذ يجبذ جبذا فهو جابذ والمفعول مجبوذ . . . فإن أقصر أحدهما عن تصرف صاحبه ولم يساوه فيه كان أوسعهما تصرفا أصلا لصاحبه ، وذلك كقولهم : أنى الشي يأنى ، وآن يئن ، فآن مقلوب عن أنى ، والدليل على ذلك وجودك مصدر أَنَى الشيء يَأنَى وآن يئين ، فآن مقلوب عن أَنَى ، والدليل على ذلك وجودك مصدر أنى يأنى وهو : الإني ، ولا تجد لآن مصدرا ، كذا قال الأصمعي » .

ومن هذا النص يتضح رأى الفريق الأول ، وهم لايرون القلب إلا في تلك الكلمات التي لاتتساوى فيها صورتا الكلمتين فى التصريف ؛ لأن الكلمة ذات التصرف الأكثر هي الأصل أما الكلمة التي يقل تصرفها فهى الفرع ، ومن هنا يحُكم عليها بالقلب ، ولعل السيوطي يوضح ذلك بقوله[2] :أن يجيء التصريف في أحد النظمين

---

(١) ٢ / ٦٩ - ٧٠ وينظر المنصف له ٢ / ٥ وما بعدها وشرح الكافية ٤ / ٢١٧١ .

(٢) همع الهوامع ٦ / ٢٧٨ .

دون الآخر . . . كما في شوايع وشواعي ، فإنه يقال : شاع يشيع فهو شائع ، ولا يقال : شعى يشعى فهو شاع ، فعلم أن شوائع هو الأصل ، وشواعي مقلوب منه .

أما الفريق الثاني فهو يعد أى كلمتين يقع بين حروفها تبادل في المواقع ، مثل : جبذ وجذب من القلب المكاني ، وقد سبقت الإشارة إلى أن اللغويين يرون جبذ وجذب من القلب المكاني .

أما موقفنا من هذه المسألة فإن الأمثلة التي سأخضعها للدراسة والبحث هي كل كلمتين متفقتين في المعنى ووقع بين أحرفها تبادل في الموقع سواء أكانت تلك الكلمات متصرفة تصرفا كاملا أم أن أحدها متصرف والآخر غير متصرف ، واعتمادي في هذا على أن القلب المكاني وقع فعلا بين بعض حروف الكلمة ، وقد أتيح لبعض الكلمات أن تتصرف نظرا لظروف الاستعمال وبعضها الآخر لم يحظ بالتصرف نظرا لقلة الاستعمال وهذا معروف في العربية ؛ لأن كثرة الاستعمال وقلته تؤدي دورا فى مفردات اللغة سواء أكان ذلك على مستوى المعنى أم على مستوى الصيغة ، كذلك سيكون هناك تركيز على تلك الكلمات التي لاتشتمل على بعض حروف العلة كآن وأنى ، وراء ورأى ، وشاكى السلاح وشائك ؛ لأن للمعتلات في العربية طبيعة خاصة يعسر معها الوصول إلى رأي يتبناه الباحث وهو مطمئن إليه تمام الإطمئنان ، وبصفة خاصة تلك المفردات ثلاثية الأصول .

القلب المكاني في التراث القديم

أشرت فيما سبق أن القلب المكانى حظى باهتمام النحاة وعلماء الصرف واللغة ، فهو من القضايا التي وجدت متسعا في هذه الفروع من التراث القديم ، وسأقدم لمحة تاريخية أختار فيها مصادر بارزة من هذه الكتب تحدثت عن القلب المكانى .

١ ـ القلب في كتب النحاة :

لقد كان كتاب سيبويه أول مصدر نحوي خص هذه الظاهرة بباب مستقل ـ فيما نعلم ـ حيث عقد باباً بعنوان[١] :

(١) الكتاب ٣ / ٤٦٥ وما بعدها

« هذا باب تحقير ماكان فيه قلب » وقال في مستهل هذا الباب : « اعلم أن كل ماكان فيه قلب لايرد إلى الأصل ، وذلك لأنه اسم بنى على ذلك كما بنى قائل على أن يبدل من الواو الهمزة ، وليس شيئا تَبِعَ ماقبله كواو موقن وياء قيل ، ولكن الاسم يثبت على القلب في التحقير ، كما تثبت الهمزة في أدؤر إذا حقّرت . . . . فمن ذلك قول العجاج :

* لَاثٍ به الأَشَاءُ والعُبْرِيُّ *

إنما أراد : لائث ، ولكن أخّر وقدم الثاء ». فإذا حقرت قلت : لويث[1] ، وذكر في معرض حديثه عن القلب الأمثلة التالية[2] .

شَاكِ وشَائِك ، وأَيْنق وأَنْوق ، وطَمْأَنَ وطَأْمَنَ ، ورَآه وسيبوه يقصد أن الكلمة المقلوبة تعود إلى أصلها عند التصغير ف « لاث » مقلوبة عن لائث وعند التصغير نقول : « لويث » فتقع الواو قبل ياء التصغير لا بعدها كما في لاث .

ومن أشار إلى القلب من النحاة المبرد[3] ، حيث ذكر القلب فى لاث نقلاً عن الخليل وذلك في قوله : قد رأيتهم يفرون إلى القلب فيها كانت فيه همزة واحدة استثقالاً لها فيقدمون لام الفعل ، ويؤخرون الهمزة التي هي عين فيها لا يهمز فيه غيرها ؛ ليصير العين طرفا فيكون ياء ، وذلك قوله :

* لَاثٍ بِهِ الأَشَاء والعُبْرِيُّ *[4]

ومن تحدث عنه من النحاة المتأخرين ابن مالك في شرح الكافية حيث قال[5] : ومن وجوه الإعلال تقديم حرف ، وتأخير آخر ، ويسمى القلب ، ولايسلم ادعاءه إلا إذا فاق أحد المثالين الآخر باستعمال فيه ، أو وجه من وجوه التصريف كما فاق (يئس) (أيس) في قولهم للكثير اليأس : يؤوس دون أيوس .

هذا هو القلب عند ابن مالك كما وجدناه عند ابن جنى ، وعند النحاة كما سلف ذكره ، أو البصريين كما ذكر السيوطي[6] .

---

(١) ينظر المصدر نفسه ٣ / ٤٦٦ .

(٢) نفسه ٣ / ٤٦٦ ، ومابعدها .

(٣) ينظر المقتضب ١ / ١١٥ ، ١٦٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) ينظر المصدر نفسه ١ / ١١٥ .

(٥) ٤ / ٢١٧٣ .

(٦) المزهر ١ / ٤٨١ .

أما إذا تساوى اللفظان في التصرف فإن هذا عندهم من اللغات كما في جبذ وجذب .

وقد مثل ابن مالك للقلب بمجموعة من الأمثلة نذكر منه[1] : يئس وأيس ، والوجه والجاه ، وطرحوم وطرموح والنَّبز والنَّزْبُ واضْمَحَلَّ وامضحل .

وقد صرح بما ذكرنا في قوله[2] : « فإن تساوى المثالان في الاستعمال والتصريف فهما لغتان ، وليس أحدهما مقلوب من الآخر نحو : جذب وجبذ ، وعاث وعثى ، ولاته لوتا وَوَلْته وْلَتا ، ووَلِثَت الشجرة ولَثِيتَ لثىً : إذا ابتلت » .

ولانريد الإفاضة بذكر مزيد من مصادر النحاة التي لايكاد يخلو منها كتاب جامع من ذكر هذه الظاهرة ، وقد رأيت أن أختم رأى النحو والنحاة بقول مطول للسيوطي فى همع الهوامع[3] يذكر فيه القلب بصورة لايحتاج معها القارىء إلى مزيد توضيح .
يقول السيوطي في تعريفه نقلا عن أبي حيان[4] : القلب تصيير حرف مكان حرف بالتقديم والتأخير .

اطراد وعدم اطراده :

لقد جاء منه شي كثير حتى إن ابن السكيت ألف فيه كتابا ، ومع ذلك فلا يطرد شيء منه ، وإنما يحفظ حفظاً ؛ لأنه لم يجيء منه في باب مايصلح أن يقاس عليه .

ألفاظه التي يرد فيها :

قال ابن مالك رحمه الله : وأكثر مايكون القلب في المعتل والمهموز ، كهار في هائر ، وشاكي في شائك ، وراء في رائي وآبار في أبار ، ومنه في غيرهما :
(أي غير المهموز والمعتل) رَعَمْلِي في لَعَمْرِي ، وذو الواو أمكن فيه من ذي الياء .

مواقعة من الكلمة :

يكون القلب بتقديم الآخر على متلوه منه بتقديم الآخر على العين ، أو بتقديم العين على الفاء ، أو بتأخير الفاء عن العين واللام ، وتحت ذلك صورتان : الأولى :

---

(١) شرح الكافية الشافية ٤ / ٢١٧٣ ـ ٢١٧٤
(٢) نفسه
(٣) التفصيل بالعناوين من وضعنا لتزيد أمر القلب إيضاحاً
(٤) ينظر همع الهوامع ٦ / ٢٧٦ وما بعدها ، وينظر الممتع في التصريف ٢ / ٦١٥ ـ ٦١٨

أن يكون الآخر لاما والمتلو عينا كراء في رأي، وهار في هائر، والأوالي في الأوائل، والأيَامى في أيَايِم. الثانية: أن يكون الآخر حرفا زائدا، والمتلو غير عين كقولهم في جمع ترقوة. ترائق، وهو مقلوب من التراقي زائد في ترقوة، والقاف لام الكلمة لا عين.

ومثال تقديم متلو الآخر على العين: الحَوْبَاء وهي النفس الأصل حَبْوَاء، قدمت اللام وهي الواو التي هي متلوة للآخر على الباء وهي عين الكلمة فوزنها فلعاء والدليل على أنه مقلوب قولهم: حابيت الرجل: إذا أظهرت له خلاف ما في حَوْبَائِكَ.

ومثال تقديم العين على الفاء: أَيِسَ من يَئِسَ، وأَيْنُقٌ في أَنْوُقٌ جمع ناقة.

ومثال تأخير الفاء عن العين واللام: حادي؛ أصله: واحد؛ تأخرت الواو عن الحاء والدال، ثم قُلِبت ياء لإنكسار ماقبلها فوزنه: عالف.

ومن تقديم اللام على الفاء: أشياء في مذهب سيبويه أصلها: شَيْئَاءُ نحو طَرْفَاء، وحَلْفَاء بتقديم لام الكلمة على فائها، فوزنها لفعاء.

كيف نعرف القلب المكاني: يعرف القلب بأمور هي:

الأولى: الأصل وذلك بأن يكثر استعمال أحد النظمين، فيكون الأقل هو المقلوب كما في لعمري ورعملي.

الثاني: الاشتقاق بأن يجيء التصريف على أحد النظمين دون الآخر، كما تقدم في الحوباء، وكما في شوايع وشواعي، فإنه يقال شاع يشيع فهو شائع، ولا يقال شعي يشعى فهو شاع، فعلم أن شوائع هو الأصل، وشواعي مقلوب فيه.

الثالث: الصحة وعدم الإعلام كما في أَيِسَ إذ لو لم يكن مقلوبا من يَئِسَ لوجب إعلاله، وأن يقال: أس لتحرك الياء وانفتاح ماقبلها، فتصحيحه دليل قلبه.

الرابع: (١) أن يكون أحد النظمين لا يوجد إلا مع حروف زوائد تكون في الكلمة، والآخر يوجد للكلمة مجردا من الزوائد، فإن سيبويه جعل الأصل النظم

(١) هذا الأمر الرابع لم نجده في نسخة الهمع المطبوعة واستطعنا استكماله من الممتع لابن عصفور ٢ / ٦١٧ ورقم هذا الدليل في الممتع «الثالث»

الذي يكون للكلمة عند تجردها من الزوائد وجعل الآخر مغيرا منه ؛ لأن دخول الكلمة الزوائدُ تغيير لها ، كما أن القلب تغيير ، والتغيير يأنس بالتغيير ، وذلك نحو اطمأن وطأمن فالأصل عند سيبويه أن تكون الهمزة قبل الميم ، واطمأن مقلوبا منه لما ذكرنا ، وخالف الجرمي في ذلك ، فزعم أن الأصل اطمأن بتقديم الميم على الهمزة ، وهو الصحيح عندي[1] ؛ لأن أكثر تصريف الكلمة أتى عليه ، فقالوا : اطمأن ويطمئن كما قالوا طأمن يطأمن فهو مطأمن ، وقالوا : طَمْأنينة ، ولم يقولوا : طُوْءمَينة .

متى يكون اللفظان أصليان :

لقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك ، وخاصة عندما نجد أن كلا من اللفظين يتصرفان تصرفا كاملاً بحيث لا نجد أحدهما يزيد على صاحبه ، وقد قال في ذلك السيوطي[2] : فإن لم يثبت كون أحد اللفظين أصلا والآخر مقلوبا منه بدليل ، فكلا التأليفين أصل نحو : جبذ وجذب ، فإن جميع تصاريفهما جاء عليهما ، قالوا : جَبَذَ يَجْبُذُ جبذا فهو جابذ ومجبوذ ، وقالوا : جَبَذَ يجذب جذبا فهو جاذب ومجذوب .

القلب في كتب الصرف :

يعد القلب قضية صرفية بالنسبة لنظرة القدماء ، وعندما ذكرت طائفة من أقوال علماء النحو قبل قليل ، فإن ذلك لا يخرج القضية من بابها ، وخاصة إذا علمنا أن كتب النحو الشاملة تعالج القضايا الصرفية ضمن أبوابها ، كالإعلال والإبدال ، والاشتقاق ، ولكني أردت أن أنتخب مجموعة من الكتب المصرفية التي بنيت أساسا للأمور الصرفية ، وأقتبس منها نصوصا لنعرض القضية من خلال فن من فنون التراث ، ونبدأ بما قاله ابن جني في المنصف[3] : قال أبو عثمان : ومن القلب : طأمن واطمأن . قال أبو الفتح : اعلم أن أبا عمر الجرمي خالف سيبويه في هذه اللفظة ، فذهب إلى أن اطمأن غير مقلوب ، وأن طأمن هو المقلوب كان أصل هذا

---

(١) أي عند ابن عصفوة ؛ لأن النصف من كتابه .

(٢) همع الهوامع ٦ / ٢٧٩ وينظر امتع ٢ / ٦١٨ .

(٣) ٢ / ١٠٤ .

الفعل عنده أن يكون الميم قبل الهمزة ، وهو بخلاف مذهب سيبويه ؛ لأن عند سيبويه أن طمأن هو والأصل واطمأن مقلوب منه .

والصحيح ماذهب إليه سيبويه ؛ لأن الفعل إذا لم تكن فيه زوائد فهو أجدر أن يكون على أصله وإذا دخلته الزوائد تعرض للتغيير . . . . . وقال أيضا نقلا عن أبي عثمان المازني[1] : وأما جبذ وجذب فليس واحد منهما مقلوبا عن صاحبه ؛ لأنهما جميعا يتصرفان ، ولا يختص واحد منها بشيء بدون الآخر .

وهنا نجد أن تصرف اللفظين على التساوي سبباً مانعاً من جعل أحد اللفظين مقلوبا عن الآخر ، وهو ماقاله النحويون ، وينسب أحيانا إلى البصريين ، كما أشرت في مستهل الحديث في هذا الموضوع .

ويقول ابن عصفوة في كتابه الممتع في التصريف[2] في باب القلب والحذف : فالمقلوب على قسمين :

قسم قُلِبَ للضرورة نحو قولهم شواعى في شوائع في الشعر ، قال :

وكَأَنَّ أُولاَها كِعَابُ مُقامِرِ
ضُرِبت على شُزُنٍ فَهُنَّ شَوَاعِي

يريد شوائع أى متفرقات . . . . وقسم قلب توسعا من غير ضرورة ، تدعو إليه لكنه لم يطرد عليه فيقاس ، نحو قولهم لاثٍ وشاكٍ والأصل شائك ولائث ؛ لأن لاثا من لاث يلوث وشائك مأخوذ من شوكة السلاح . . . . ولا يمكننا استيعاب ماجاء من ذلك هنا ، لسعته . حتى أن يعقوب قد أفرد كتابا في القلب والإبدال . فإن قيل : إذا كان من السعة والكثرة بحيث يعتذر ضبطه فينبغي أن يكون مقيسا، فالجواب أنه مع كثرته من أبواب مختلفة لم يجيء منه في باب ماشيء يصلح أن يقاس عليه ، بل لفظ أو لفظان أو نحو ذلك ثم يستطرد ابن عصفور في ذكر الأمور التي يعرف بها القلب وقد ورد في حديثه عن القلب إشارة ، إلى القلب الذي يأتي للضرورة كما في شواعي على حين أوردها كثير ممن ذكرنا أقوالهم على أنها من القلب الذي سماه هو قلب التوسع .

---

(١) المصدر نفسه ١٠٥ .
(٢) ٢ / ٦١٥ .

أما قضية القياس التي أشار إليها رغم كثرة المسموع منه ، فإنه السبب الذي يحدث به القلب المكاني كما سيأتي تفصيله لاحقاً عملية تَيْسِيرِيَّةٌ وإعادة ترتيب أصوات الكلمة بشكل أيسر مما كانت عليه قبل القلب .

ويقول الرضى في الشافية[1] : يعنى بالقلب تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ، وأكثر مايتفق القلب في المعتل والمهموز ، وقد جاء في غيرهما قليلا ، نحو : امضحل واكرهف في اضمحل واكفهر .

ثم يذكر الرضى مواقع القلب على نحو مامر في النصوص السابقة ، وبعد ذلك يذكر الأمور التي يعرف بها القلب ، وربما كان فيها شيء من التوسع ولذلك نجملها في النقاط التالية[2] :

١ ـ يعرف القلب بأصله كناء ينأي ، ولم يأت مصدر ناء وهو النيء .
٢ ـ يعرف القلب بأمثلة اشتقاقه ، ويرى الرضى أن هذه العلامة التي يعرف بها القلب ترجع للعلامة الأولى ؛ لأن الاشتقاق هو الذي يبين الأصل من الفرع .
٣يعرف بصحته ـ أى أنه عند القلب لايحدث إعلال ـ كقولنا في يِئِسَ أيس .
٤ ـ يعرف القلب بأن أداء تركه يؤدي إلى اجتماع همزتين عند الخليل ، وسيبويه لايرى ذلك ، ومثال ذلك : اسم الفاعل من الأجوف المهموز اللام نحو ساء وجاء .
٥ ـ يعرف القلب بأن أداء تركه إلى منع صرف الاسم من غير علة كما في أشياء[3] .

٣ ـ القلب في كتب اللغة :

في كتب التراث القديم بعض المصنفات التي اشتهرت بأنها من الكتب اللغوية بوجه عام ، وكتب اللغة تتفرع ، فمنها المعجمات كالعين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وجمهرة اللغة لابن دريد ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والصحاح للجوهري ، وغير ذلك مما يدخل في قائمة المعجمات .

---

(١) ١ / ٢١
(٢) ينظر شرح الشافية ١ / ٢١ وما بعدها
(٣) هنا تفصيل طويل في كتب النحو والصرف عن (أشياء) فيما يتعلق بمنع صرفها وقلبها ، ولا نريد الإطالة في ذلك بذكر آراء النحاة في ذلك ؛ لأن ذلك ليس من مقاصد اللبحث .

ومنها تلك المصنفات التي تناولت موضوعات خاصة في اللغة ، فتفرد لخلق الإنسان بابا ، وللخيل بابا ، وللإبل بابا ثالثاً، وللنخل بابا، وتلم ببعض الأبواب التي يُحتاج إليها كالإبدال ، والإتباع والمعرب ، والقلب المكاني ، ويمكن أن نصنف هذه الكتب ونحوها في معاجم الموضوعات ، ويأتي في مقدمتها الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والمنتخب لكراع النمل علي بن الحسن الهنائي ، والمخصص لابن سيده .

ومنها مايتناول موضوعات شتى في اللغة ، ويجرى في تضاعيفها خصائص العربية التي تميزت بها على غيرها وقد درج المحدثون على تسمية هذه المصنفات كتب فقه اللغة ويذكرون عددا منها ، كالصاحبى لابن فارس ، والخصائص لابن جني ، وفقه اللغة للثعالبي ، والمزهر للسيوطي ، وهذه الطائفة من كتب التراث لم تهمل قضية القلب المكاني فأفسحت في ثناياها أبواباً للحديث عنها . وفيما يلي نشير إلى ماخص القلب بباب خاص مما وقفنا عليه ؛ ليكون القارىء على بينة مما تقوله هذه الطائفة من مصادر التراث .

أولا : جمهرة اللغة لابن دريد : لقد خص أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري موضوع القلب المكاني بباب في كتابه الجمهرة[1] حيث قال : باب الحروف التي قلبت وزعم قوم من النحويين أنها لغات .

قال أبو بكر وهذا القول خلاف على أهل اللغة والمعرفة ، يقال : جَبَذَ وجَذَبَ ، وما أُطْيَبَهُ وأَيْطَبَه ، ورَبَضَ ورَضَب الشاة ، وَأَنْبَضَ في القوس وأَنْضَبَ . . . . . وصاقعة وصاعقة . . . . . . وعاث يعيث وعثي يعثي . . . . وطِبِّيخ وبَطِّيخ .

وهنا تقابلنا أول إشارة ـ أقدم إشارة في كتب اللغة ـ تشير إلى اختلاف المذاهب في القلب المكاني ، وتضعنا أمام فريقين ، هما النحاة واللغويين وابن دريد وإن كان بصرياً كما في نسبته فإنه لغوي، وعليه نرجح أن المذهبين في القلب المكاني هما « نحوى ولغوى » لا « بصرى وكوفي » كما أشار إلى ذلك ابن النحاس في شرح

(١) الجمهرة ٣ / ٤٣١

القصائد التسع عندما قال[1] : القلب الصحيح عند البصريين مثل شاكي السلاح وشائك وجرف هارٍ وهائرٍ وأما مايسميه الكوفيون القلب نحو : جَذَبَ وجَبَذَ ، فليس هذا بقلب عند البصريين .

وقد وسم المذهبين ـ اللغوي والنحوي ـ ابن درستوريه في قوله عن كلمتي « بطيخ وطبيخ » .

وليست عندنا على القلب كما يزعم اللغويون[2] ، وكذلك السخاوي في شرح المفصل[3] : فإذا وجد المصدران ـ للفعلين يئس وأيس ـ حكم النحاة بأن كل واحد من الفعلين أصل ، وليس بمقلوب من الآخر ، نحو جبذ وجذب . وأهل اللغة يقولون : إن ذلك كله مقلوب فهذا نص ثالث عن النحويين واللغويين تجاه ظاهرة القلب .

ثانيا : الصاحبي في فقه اللغة : يقول ابن فارس[4] : ومن سنن العرب القلب، وذلك يكون في الكلمة ، ويكون في القصة ، فأما الكلمة فقولهم : « جذب وجبذ » و « بَكَلَ ولَبَكَ » وهو كثير ، وقد صنفه علماء اللغة .

وكلام ابن فارس هنا يمثل المذهب اللغوي تلميحا لاتصريحاً ، ذلك أن النحويين يعدون « جذب وجبذ » لغات ، ولا يعدونها من المقلوب[5] ، في حين أنه استشهد ب « جذب وجبذ » على القلب في الكلمة ، فهو إذن يمثل المذهب اللغوي في القلب الذي لايفرق بين مايتصرف (جذب يجذب جذباً فهو جاذب ومجذوب ، وجبذ يجبذ جبذاً فهو جابذ ومجبوذ) وبين مالايتصرف كيئس وأيس ، كذلك ذكر في النص أن علماء اللغة صنفوه ، وهنا نجده يهمل ذكر النحويين مما نراه دلالة على مذهبه الذي يتفق مع اللغويين كابن دريد .

---

(١) شرح القصائد للنحاس ١ / ٣٩١ ـ ٣٩٢ ـ والمزهر ١ / ٤٨١ مع وجود خلاف يسير بين نصي الكتاب .
(٢) المزهر ١ / ٤٨١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الصاحبي ٣٢٩
(٥) ينظر شرح الكافية ٤ / ٢١٧٤ والخصائص ٢ / ٦٩ ـ ٧٠ ، والمنصف ٢ / ١٠٥

ثالثا : فقه اللغة وسر العربية للثعالبي : يقول أبو منصور الثعالبي[1] : « من سنن العرب القلب في الكلمة وفي القصة أما في الكلمة فكقولهم : جذب وجبذ ، وضَبَّ وبَضَ ، وبكل ولبك ، وطمس وطسم » .

وهنا أيضاً نجد الثعالبي يلمح بالمذهب اللغوي في جعله جذب وجبذ من القلب المكاني كما فعل ابن فارس في النص الذي سقناه قبل قليل .

رابعاً : الخصائص لابن جني : عقد ابن جنى باباً في الأصلين يتقاربان في التركيب بالتقديم والتأخير[2]، وقد ذهب في هذا الباب مذهب النحاة فكل لفظين يتصرفان تصرفاً واحداً نحو : جذب وجبذ يعدان أصلين وليس من المقلوب أما إذا لم يتوازيا في التصرف كأيس ويئس فإنهما يعدان من المقلوب ، وهذا مذهب النحاة كما أسلفنا ، فابن جنى يذهب مذهبهم . وقد أمعن في التفصيل في الباب المذكور حول هذه القضية مورداً آراء العلماء كسيبويه والخليل والفراء وأبي عمر الجرمي .

خامساً : المزهر في علوم اللغة : لم نجد في المزهر في الباب الذي خصصه السيوطي للقلب المكاني رأياً خاصاً به ، وإنما ساق آراء العلماء الذين تعرضوا لهذه الظاهرة ، وبين من خلاف هذا الباب آراء العلماء فيه ، وقد أشرنا إلى ذلك ، حيث وجدناهم في بعض الأقوال ينقسمون إلى بصريين وكوفيين تجاه هذه الظاهرة ، وفي أقوال أخرى إلى نحويين ولغويين ، وهذا هو الأغلب في نظري ؛ لأن عامة النحاة ممن وقفنا على أقوالهم يقسمون أمثلة هذا الباب إلى قلب مكاني ، وإلى لغات ، أما ابن جني - وهو معدود من فقهاء اللغة في نظري - فقد نحا منحى النحويين وتبنى رأيهم .

وقبل أن نختم القول في آراء النحاة والصرفيين واللغويين ، أريد أن أقدم كلمة موجزة تحدد الاجابة عن هذا السؤال : هل الاختلاف في القلب المكاني خلاف بين البصريين والكوفيين ، أو خلاف بين النحاة واللغويين ؟ .

ومن خلال الآراء السابقة التي سقتها ، ومن خلال النصوص المذكورة وجدت أن اتجاه الآراء إلى أن المسألة خلافية بين اللغويين من جهة وبين النحويين والصرفيين

---

(١) فقه اللغة ٥٦٤ - ٥٦٥ - مطبعة الاستقامة ١٣٧١ هـ .

(٢) الخصائص ١ / ٦٩ ومابعدها .

من جهة أخرى ، لأن الإشارة إلى البصريين والكوفيين لم أجدها ترد إلا في قول ابن النحاس في شرح المعلقات[1] : « القلب الصحيح عند البصريين . . . وأما مايسميه الكوفيون القلب . . . » . أما الحديث عن هذه الظاهرة باعتبارها مما وقع فيه الخلاف بين اللغويين من جهة والنحويين والصرفيين من جهة أخرى فقد أشار إلى ذلك ابن دريد في الجمهرة[2] ، وقد صرح بأن ما يقوله هو بخلاف ما يقوله النحويون .

وممن أشار إلى أمثلة تعد لغات عند النحاة وتعد قلباً عند اللغويين ابن فارس في الصاحبي[3] ، والثعالبي في فقه اللغة[4] ، وأبو عبيد[5] ، والفارابي[6] ، وابن سيده[7] ، والفيروز آبادي[8] ، وهنا نجد المسألة تختلط حيث يرى بعض اللغويين مثال القلب (جذب وجبذ) مما يعد لغات ، وفي مقدمة المتبنين لهذا الرأي ابن جني ، وجرى على خطاه كل من ابن سيده والفيروز آبادي .

ورأينا في هذه المسألة هو : أن الكلمة إذا وقع فيها قلب مكاني ، وتبادلت بعض أصواتها المواقع ، ودلت دلالة على السواء على معنى واحد فإنها مقلوبة سواء كان القلب مقصوراً على تصرف محدود في إحدى الكلمتين أو شاملاً لكل تصرفاتها وتفسير تصرف بعض أمثلة القلب المكاني وعدم تصرف مجموعة أخرى يرجع إلى الاستعمال ؛ هو عنصر الحياة للمادة اللغوية ، فمتى كثر في كلمة مقلوبة فإنه بلا شك سيذهب بها في كل صيغة تدعو إليها الحاجة ، فإن دعت الحاجة إلى اسم الفاعل فسيشتق المُسْتَعْمِلُ هذه الصيغة من الكلمة المقلوبة ، وإن دعت لاسم المفعول فسيحدث ذلك أيضاً وهكذا في سائر الصيغ .

---

(١) شرح القصائد ١ / ٣٣٩ - ٣٤٠ والمزهر ١ / ٤٨١ والنص ورد بتمامه من قبل فيرجع إليه .
(٢) ٣ / ٤٣١ ونظر المقاييس ١ / ٥٠١
(٣) ٣٢٩
(٤) ٥٦٤
(٥) ينظر المحكم ٧ / ٢٥٦
(٦) ينظر ديوان الأدب ٢ / ١٥٣
(٧) المحكم ٧ / ٢٥٦
(٨) القاموس المحيط (جبذ)

وبالنظر في المثال (جذب) نجد أن هذه الكلمة من الكلمات المستعملة ولا نتوقع أن يمر عليها زمن دون أن تجري على ألسنة المتكلمين ، وعندما حدث القلب فيها فأصبحت لها صورة أخرى هي (جبذ) فإن من قلب في هذه الكلمة سيقلب في كل صيغة تُشْتَقُّ منها ، وموازاتها في التصرف لكلمة (جذب) لايخرجها من القلب ، وكذلك نسبتها لقبيلة معينة كتميم مثلاً لايعني أنها أيضاً من القلب بسبب أنها لغة لقوم بأعيانهم ، ونحن نعرف أن العربية لغة تميم وقريش وقيس وأسد وطيء وكنانة وهذيل وسائر العرب ، فالقلب إذا وقع لهجة من لهجات العرب وجب علينا قبل إنكاره أن نفسره ؛ لأن الصيغة الجديدة المقلوبة مأخوذة من أصل وليست مرتجلة في هذه اللهجة أو تلك ، ويقال مثل ذلك في كل مثال نسبت فيه إحدى الصيغتين إلى قبيلة من القبائل .

وخلاصة رأينا في القضية أن تساوي التصرف في الكلمة الأصلية والمقلوبة لايخرجها من ظاهرة القلب المكاني ، وكذلك نسبة إحدى الصيغتين لقبيلة من قبائل العرب لايخرج الكلمة عن كونها من القلب المكاني ، نعم هى لغة لقبيلة ولكن هذه القبيلة قلبت الكلمة ، وعلينا في هذه الحاللة أن نبحث عن تفسير لسبب القلب ، أو نبحث عن أى الصيغتين أصل وأيها الفرع . هذا مانراه في هذه الظاهرة ، وهو مخالف لما يقوله النحويون ، ويتفق مع رأى اللغويين كابن دريد ، وأبي عبيد وابن فارس ، والثعالبي ، والفارابى .

القلب المكاني في الدرس الحديث

لقد حظى القلب باهتمام المحدثين ، فمنهم من ألمع إليه إلماعاً في إشارات عابرة ، ومنهم من وقف عند هذه القضية عارضاً لها ومفسراً في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، وفي ضوء اللغات الأخرى . وسنعرض فيما يلي جملة من آراء المحدثين حول هذه الظاهرة :

١ ـ يقول أحد المحدثين[١] : « أما القلب فهو نحو جَذَبَ وجَبَذَ ، فقد جعله ابن فارس من سنن العرب، وكأن هذه الفوضى[٢] ميزة يفخر بها العرب على

(١) التطور اللغوي التاريخي ١٢٠ للدكتور إبراهيم السامرائى الطبعة الثانية ١٤٠١

(٢) وصف المؤلف القلب بأنه فوضى عبارة غير موفقة ، فالقلب ظاهرة لغوية طبيعية تقع في كثير من اللغات .

غيرهم . . . . والذي نراه أن الألفاظ المقلوبة موجودة في الألسن الدارجة ، ووجودها فيها يشعرنا أنها من الاختلافات الإقليمية اللغوية . . . . والذي نلاحظه أن القلب يعرض كثيراً في لغة الأطفال الصغار في الثالثة أو الرابعة من أعمارهم وهو عيب من عيوب النطق ، وهم يتخلصون من ذلك كلما تقدموا في السن » .

٢ - ويقول الدكتور محمد حسين آل ياسين عن القلب : « والظاهر أنه يحدث في الغالب اعتباطاً ، أى دون قاعدة محددة يسير عليها سوى الرغبة في تخفيف اللفظ ، فالناطق ، بفطرته يميل إلى السهولة في الكلام[١] . » .

٣ - ويقول الدكتور داود عبده : « وهي ظاهرة موجودة في أمثلة متفرقة في اللغات عامة ، وقد سماها علماء اللغة الغربيون(Metathasis) . . . ويكون في أصله نوعاً من التعثر في اللفظ ، سببه أن المتكلم يتهيأ للفظ صوت فينطق به في غير موقعه الصحيح[٢] .

ويقول في كتاب آخر له[٣] : « والقلب المكاني في مثل هذه الحالات - يعني القلب الذي يحدث بين الحركات - يمكن تفسيره في إطار قانون : الحد الأدنى من الجهد » .

٤ - ويقول الدكتور رمضان عبدالتواب عن القلب المكاني : « وهو ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السهولة والتيسير كذلك[٤] » .

٥ - ويقول الدكتور إبراهيم محمد نجا : « والذي يدعو إلى وجوده الميل إلى تخفيف اللفظ ، أو التفنن فيه ، وقد يحدث كثيراً من غير داع يقتضيه ، وهذا ما نلمسه في لهجاتنا العامية[٥] » .

٦ - ويقول الدكتور حسن ظاظا في معرض حديثه عن الترادف[٦] : « في رأي

---

(١) الدراسات اللغوية عند العرب ٤٠٦ .
(٢) أبحاث في اللغة العربية ١٣١ .
(٣) دراسات في علم أصوات العربية ٩٢ .
(٤) التطور اللغوي ٥٧ .
(٥) اللهجات العربية للدكتورة إبراهيم محمد نجا ١٠٤ .
(٦) كلام العرب ١٠٣ .

اللغوي الفرنسي » دار مستيتر الذي ذهب إليه في كتابه حياة الألفاظ أن بعض الألفاظ مع تكونها ودورانها على الألسنة تأخذ شكلين مختلفين ، يصبحان مع الاستعمال مترادفين ، وعندنا في العربية مايوءيد ذلك مثل : جَذَبَ وجَبَذَ ، وفم وفوه » ، ومن المعلوم أن جَذَبَ وجَبَذَ على رأى اللغويين العرب القدماء من القلب المكاني ، وهي في الوقت نفسه مما يمكن أن يعد من المترادف باعتبار أن المعنى الواحد إذا توارد عليه أكثر من لفظ ، فإن تلك الألفاظ تعد من المترادفات .

٧ ـ وممن أدلى بدلوله في هذه الظاهرة الدكتور أحمد علم الدين الجندي ، حيث عقد فصلاً في كتابه « اللهجات العربية في التراث[١] » وبعد أن عرض بعضاً من آراء قدامى اللغويين ، وسرد جملة من الامثلة التي يعود القلب فيها لاختلاف لغات القبائل العربية قال عن سبب القلب[٢] : » يرجع سبب القلب إلى الميل إلى التخفيف اللفظي ، فبعضنا يقول « مفلعص » وبعضنا قد يرى في ذلك صعوبة فينطقها «مفعلص». . كما يحدث القلب من أخطاء الأجيال كأن يخطىء الطفل في ترتيب كلمة ولا يجد من يصحح له خطأه فتصبح الكلمة ذات صورة جديدة في لهجته ويجد في لغة الجيل الناشىء أموراً لم تكن مألوفة في لغة السلف ، وحل الخطأ الجديد محل الصواب القديم ، وأصبح ماكان يعد خطأ في لغة الأجداد أمراً معترفاً به في لغة الأجيال كما قد يكون للقياس الخاطىء النصيب الأكبر في إيجاد أنواع لهذا القلب . . . . . وقد يكون من أسبابه كذلك : التوهم السمعي . . . . ويمكن أن نضيف عاملاً آخر في سبب القلب ، وهو احتمال خطأ الرواة في النقل » .

٨ ـ وقد تعرض علماء اللغة الغربيون من مستشرقين وغيرهم لهذه الظاهرة ، فذكره المستشرق الألماني « برجستراسر[٣] » وإسرائيل ولفنسون[٤] ، أما اللغوي الفرنسي فندريس فيقول[٥] بعد حديثه عن ظاهرة الإبدال : « والانتقال المكاني

---

(١) ٢ / ٦٤٧ وما بعدها

(٢) اللهجات العربية في التراث ٢ / ٦٥٤ ـ ٦٥٥

(٣) التطور النحوي ٣٥

(٤) تاريخ اللغات السامية ١٦٥

(٥) اللغة ٩٤

يصدر عن نفس الأصل الذي صدر عنه التشابه إذا أن مرد الأمر في كليهما إلى الخطأ ونقص الالتفات » .

هذه طائفة من أقوال علماء اللغة المحدثين عرباً وغربيين ، ذكروا فيها هذه الظاهرة ووضع أكثرهم تفسيراً لها كما ظهر من النصوص التي سقتها ، وقد حرصت على سوق هذه النصوص لتكون بمعانيها بين يدي القارىء فتكتمل الصورة أمامه من خلال هذه النصوص .

القلب المكاني واللغات

يعد القلب المكاني من الظواهر التي تحدث في اللغات وليس مقصوراً على العربية . يقول اللغوي الشهير فندريس[1] فبدلاً من « فِسْتْرا » Festra « نافذة » يقال في البرتغالية Fresta (فِرستا) ويقال في بعض اللهجات البريتانية drebi بدلاً من Debri (دِبْري) « يأكل » .

ويقول المستشرق كارل بروكلمان : إن القلب المكاني عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة على بعض ، لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق اللغوي ، وهي تحدث أولاً عند اتصال الأصوات في الكلمة غير أنها غالباً ما تعمم في التصاريف عن طريق القياس ، وهي تشبه ظاهرة المخالفة في أنها عموماً لا تهم ناحية القواعد بقدر ما تهم الميادين المعجمية ـ الصرفية . . ففي السامية الأولى تدخل تاء الصيغة الانعكاسية (تاء الافتعال) بعد فاء الفعل إذا كانت هذه صوتاً من أصوات الصفير . . وفي العربية يحدث القلب المكاني وغيره بين صوت الصفير والواو في قووس > قسوو > قسي بالمخالفة ، والشفوية في الكلمات الأجنبية مثل : الاكسندر > الاسكندر . . وفي الحبشية يحدث القلب المكاني بين الصوت الشفوي وصوت الصفير في : efsentu > esfent « كم » . . وفي العبرية يحدث القلب المكاني بين الأصوات المائعة في simla (= شملة) salma . . وفي الآرامية يحدث بين الصوت الشفوي وصوت الصفير في الكلمة العبرية besora « بشارة » التي قلبت في الآرامية sebarta « شبارة . . وفي الآشورية[2] .

---

(١) اللغة ٩٤ .

(٢) فقه اللغات السامية ٨٠ ـ ٨١

الثاني : مذهب اللغويين ـ وقد ينسب للكوفيين ـ الذي يعد كل كلمتين وقع فيها القلب في المثال من القلب المكاني سواء أتصرفنا تصرفا كاملا أم أن التصرف شمل إحداهما وقصر عن الآخر.

إني أرى أن كل كلمتين وقع فيهما القلب المكاني سواء أتصرفتا تصرفاً كاملاً أم أن التصرف أتيح لإحداهما ولم يتح للأخرى من القلب المكاني ؛ لأن الكلمتين تدلان دلالة واحدة على السواء من ناحية المعنى فأصبحتا كالمترادف ، والترادف له شروط خاصة يمكن من خلالها الحكم بأن الكلمتين مترادفتان ، ولكن صورتين كجَذَبَ وجَبَذَ لا يمكن أن نعدها من الترادف بمفهومه الحديث والقديم معاً.

أما أن « جَذَبَ وجَبَذَ » وردت في كليهما كافة التصاريف فإن هذا لايمنعنا من أن نعدهما من القلب المكاني ؛ لأن تصريف الكلمة مرهون بالاستعمال فمتى كثر الاستعمال ودعت الحاجة إلى صيغة من صيغ تصريفها فليس هناك مايحجر على استعمالها ، ومن هنا نستطيع القول بأن أى كلمة وقع فيها القلب وتصرفت صورتاها مما يعد من المقلوب ، ونرجع ذلك إلى الاستعمال الذي كثر في الصورتين ـ الأصلية والفرعية ـ فأدى بهما إلى التساوي ، حتى أن الناظر إليهما لايعرف الأصل من الفرع ؛ لأن الأصل لابد من امتيازه عن الفرع إما بزيادة التصرف أو كثرة الاستعمال ، أو غير ذلك مما ذكرناه فيما سبق في أمارات القلب وأدلته.

إن القلب المكاني ظاهرة صوتية في مفهوم الدرس اللغوى الحديث لاصرفية ونحن بهذا القول نخرج القلب من بابه الصرفي إلى باب جديد في الدراسات اللغوية المعاصرة ؛ لأن تبادل المواقع بين أصوات الكلمة لايوءدى إلى تغيير في المعنى ؛ صحيح أن القلب قد يوءدى إلى اختلاف موقع الكلمة في المعجم للصلة الوثيقة بين تغيير موقع الصوت اللغوي والترتيب الذى يخضع له المعجم ، ومثالاً على ذلك نجد أن «جَذَبَ» تقع في باب الباء في معاجم التقفيه ، و«جبذ» تقع في باب الذال في هذا النظام المعجمى ، هذا إذا شمل القلب الحرف الأخير ، أما إذا أصاب القلب الحرف الأول فإن الموقع يختلف سواء أكان نظام المعجم هجائياً أم ذلك النظام الذي يعتمد على الحرف الأخير حيث سيكون للكلمة موقعان كل موقع في فصل مستقل عن الآخر.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى بعض الظواهر الصوتية التي نجدها في العربية كظاهرة المماثلة كقولنا في «اجْتَبي»: «اجْدَبي» وفي «اجتمعوا»: «اجدمعوا» أو

« اشتمعوا » وهذه الظاهرة حدثت للمجانسة بين أصوات الكلمة ، وقد يسميها القدماء « المضارعة » والمجانسة بيين أصوات الكلمة هي ضرب من التيسير والسهولة ، فعندما ننطق كلمة : « نشدت » : « نَشَتَّ » أو « نَشَدَّ » فإن ذلك أيسر على اللسان من قلقلة الدل .

وهناك ظاهرة أخرى بعكس السابقة وهي ظاهرة المخالفة كقولنا في « تسرَّر » : « تسرَّى » وفي « تظنَّنَ » : « تظنَّى » وفي « أملَّ » : « أملَى » : فإن هذا أيضاً ينسجم مع مبدأ السهولة في النطق والتيسير في أصوات الكلمة .

وظاهرة القلب المكاني التي جاءت معظم أقوال المحدثين - كما سقناها فيما سبق - على أنها ضرب من التيسير في نطق الكلمات أمر نؤيده ، وإذا قال بعضهم إن القلب يحدث بتعثر في نطق أصوات الكلمة فهذا القول يتفق مع مبدأ السهولة وإن لم يصرح به ؛ لأن التعثر في النطق هو تجنب للصعب وميل إلى السهل ، ولكن كيف تكون السهولة وكيف تكون الصعوبة ؟

لقد توصلت إلى رأى في ذلك يفسر لنا هذه السهولة ، ويكشف لنا كنه هذه الظاهرة خاصة في الكلمة العربية التي وقع فيها القلب وتميزت بأصوات صحيحة وفيما يلي بيان لهذا الرأي :

أولاً : القلب يحدث لتقصير المسافات :

نحن نعلم أن للحرف مخارج تمتد من الحنجرة إلى الشفتين ، وعملية النطق لكلمة من الكلمات هي انتقال من صوت إلى صوت ، وهو كذلك إنتقال من مخرج إلى مخرج - في كثير من الحالات - فعندما ننطق كلمة مثل « عَكَفَ » فإن النطق يسير في مثل هذه الكلمة من أسفل الجهاز النطقي في اتجاه واحد نبدأ بالعين من وسط الحلق فننتقل إلى الكاف وهي فوقها قليلاً ولكن آلية النطق تيسر إلى الأعلى ، ثم بعد ذلك نصل إلى الفاء وهي من بين أطراف الثنايا العلياء وباطن الشفة السفلى ، وهذا الصوت يقع في أعلى الجهاز النطقي ، وبه تنتهي أصوات الكلمة[1] ، فنلاحظ هنا

(١) الحركات لم نشر إليها ولم نعدها في مراكز الانتقال من صوت إلى صوت ؛ لأنها عادة تكون وسيلة للانتقال من صوت إلى صوت ، ولولاها لما استطعنا في العربية أن ننطق ثلاثة أصوات ساكنة ، كذلك لن نعتد بمواقعها في الجهاز النطقي لأنها لا تشكل صعوبة في آلية نطق الكلمات كما هو الحال في الصوامت ، بل هي مما ييسر الانتقال من صوت إلى صوت .

أن الجهاز النطقي قام بنطق الكلمة بصورة تسير في اتجاه واحد في نطقها ، أما إذا غيرنا في ترتيب أصوات هذه الكلمة فنطقناها مثلا « كَعَفَ » فإنا سنجد نطقها يسير في اتجاهين : الأولى من الكاف الى العين أى من الأعلى إلى الأسفل ثم من العين إلى الفاء أى من الأسفل إلى الأعلى ، وبهذا حدث اتجاهان في نطق الكلمة ، وهذا يشكل شيئاً من الصعوبة في نطق الكلمة .

اننا عندما نجد سهولة في نطق كثير من الكلمات مثل « ضرب » و « علم » و « عرف » و « فرح » و « كتب » لانعزو ذلك إلى غير هذه الفكرة ، أى السير في نطق أصوات الكلمة في اتجاه واحد ، وقد أكثر علماء الصرف من اعتماد أمثال هذه الأفعال عناوين لأبواب الفعل ، كقولنا هذا من باب « ضرب » وذلك من باب « فرح » وثالث من باب « كتب » ولابد في هذه الحالة أن ننبه إلى أمر يتصل بفصاحة الكلمة ، وهو تباعد المخارج فكلما تباعدت مخارج الحروف كلما كان ذلك دليلاً على فصاحتها ، والفصاحة هنا تعني السهولة في نطق الكلمة وعدم تزاحم أصواتها في مخارج متقاربه ، بل نجد أن بعض الأصوات لا تتجاوز في بنية الكلمة العربية ، فالتاء لا تقع بعد الزاى مباشرة ، أو بعد الدال إلا إذا كانت ضميراً أو تاء تأنيث ، ولم نجد في القاموس المحيط تاء بعد الزاي إلا في كلمتين :
الأولى : « لُزْتُ » وهي قرية من قرى الأندلس ، والثانية : تَزَتَّتِ المرأة : أى تزيَّنت ، وتفسير ذلك قرب المخرج ، ولهذا أمثال كثيرة سنخصها ببحث مستقل إن شاء الله .

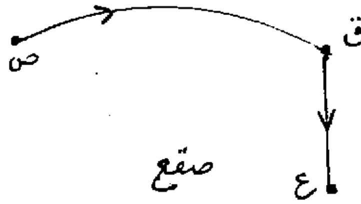
ومن أمثلة القلب المكاني الذي أدى القلب إلى جعل آلية النطق تسير في اتجاه واحد ماحدث في « الصاعقة » والصاقعة «فأصول هذه الكلمة هي « الصاد والعين والقاف » وهو الأصل في هذه الكلمة ، وآلية النطق فيها تبدأ « بالصاد » ، ومخرجه من بين طرف اللسان وأصل الثنايا (أي في أعلى الجهاز النطقي ، ثم بعد الصاد « العين » ومخرجه من وسط الحلق وهذا المخرج في أسفل الجهاز النطقي ، ثم بعد ذلك تتجه آلية النطق إلى الأعلى ، إلى مخرج القاف ، وهو من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى ، ويمكن بيان ذلك بالرسم التوضيحي التالي[1] :

---

(١) يرجع لأمثلة القلب في كل من جمهرة اللغة لابن دريد ٣ / ٤٣١ والمزهر للسيوطي ١ / ٤٨١ والمنتخب لكراع النمل ٢ / ٥٩٤



هذه هي صورة نطق الكلمة قبل القلب ، أما بعده فإن النطق يسير على النحو التالي (صقع) حيث تبدأ عملية النطق بالصاد ، ثم تسير إلى الأسفل نحو مخرج القاف ، ثم بعد ذلك تتجه نحو مخرج العين إلى الأسفل ، ويمكن مشاهدة صورة نطقها في الشكل التالي[1] :

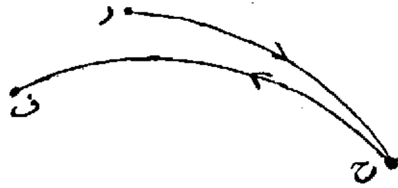


ولا شك في أن هناك تناسباً بين سهولة النطق وبين الخط الذي يبين آلية النطق للكلمة من صوت إلى آخر ، ويمكن أن نضرب مثالاً بكلمة نبتدع القلب فيها لنرى هذا التناسب ، ومثالنا هو كلمة « فرح » وصورتها قبل القلب القلب على النحو التالي :

(١) النقاط التي تمتد منها الخطوط تمثل مخارج الحروف ـ والخطوط تمثل آلية النطق .

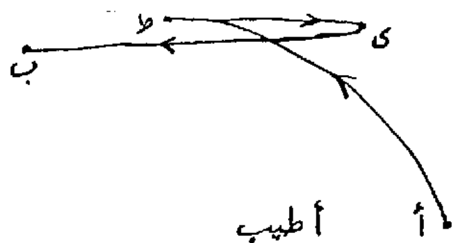


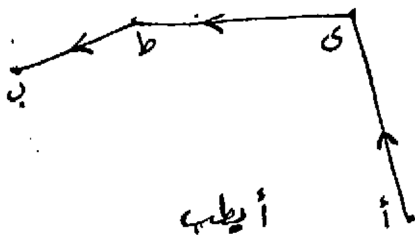
فإذا قلبنا هذه الكلمة فأصبحت « رحف » فإن شكلها سيكون كما يلي :



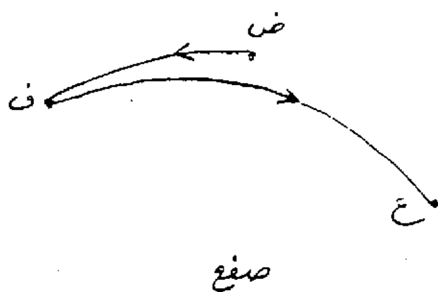
ومن المعلوم أن « فرح » أيسر نطقاً من « رحف » والسبب في ذلك أن خط سير آلية النطق سار في اتجاهين في هذه الصورة في حين أنه يسير في اتجاه واحد في الصورة الأولى .

ومن أمثلة القلب قولهم في : « أطْيَبِ » : « أَيْطَبَ » وهذا بيان لصورة الكلمتين قبل القلب وبعده :

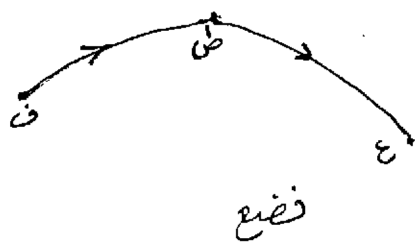




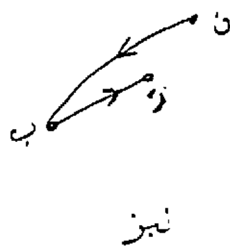
ومن الأمثلة أيضاً مايلي ، والأشكال التي في الجهة اليمنى تدل على صورة الكلمة قبل القلب ، والتي في الجهة اليسرى تمثل الكلمة بعد القلب :



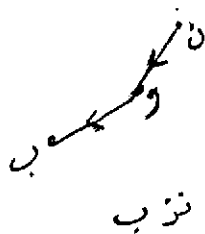
صفع



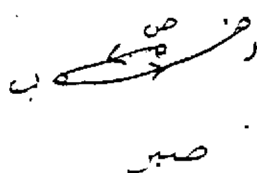
فضع



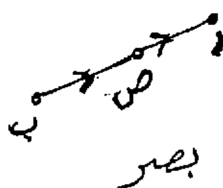
نبز



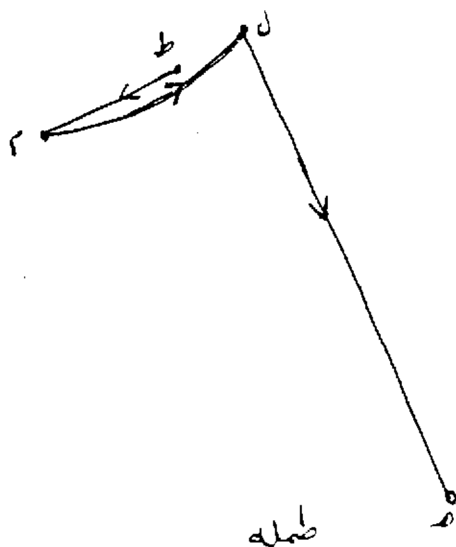
نزب



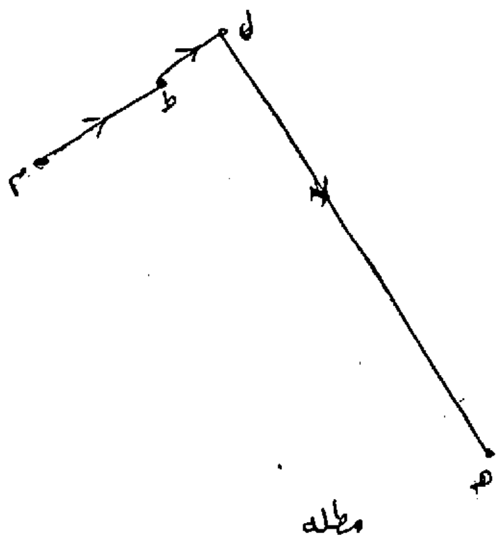
صبر



بصر



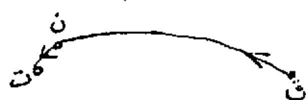
طمله



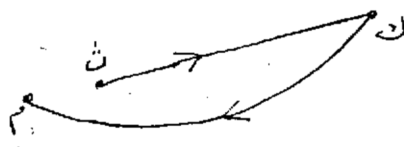
مطله



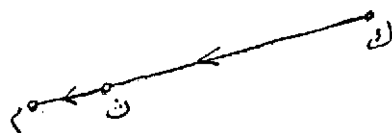
قتن



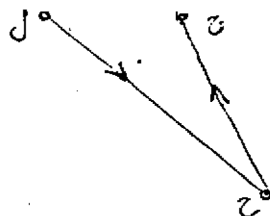
قنت



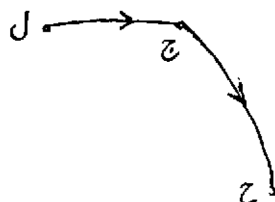
ثكم



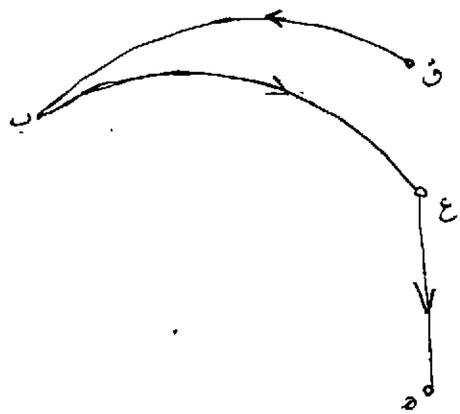
كثم



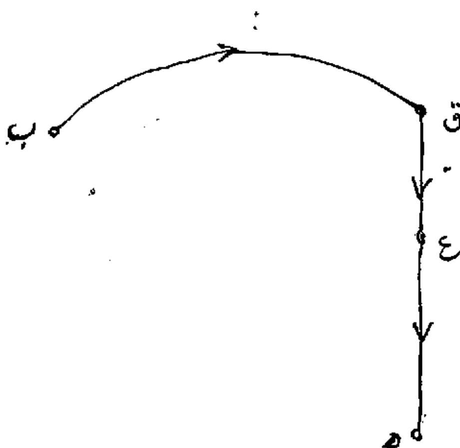
لحج



لجح

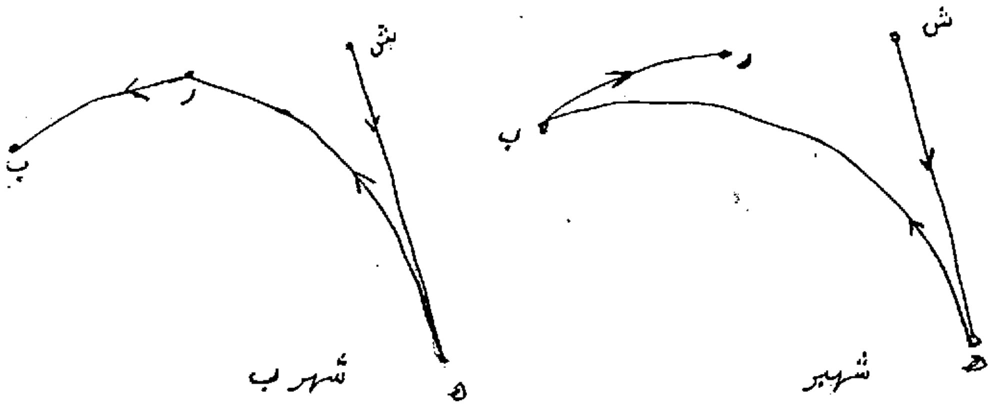


قبعة



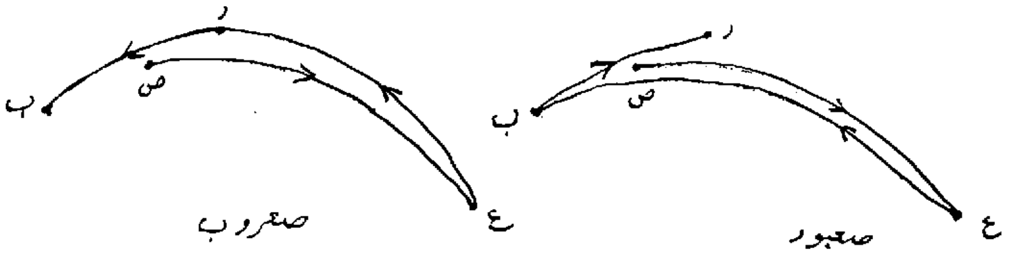
بقعة

ثانياً: القلب يحدث لتقليل عدد اتجاهات آلية النطق: حيث نجد لبعض الكلمات أكثر من اتجاه في آلية النطق فيقوم الجهاز النطقي بتقليل عدد هذه الاتجاهات ، وفي هذا مرونة وقلة مجهود بالنسبة للنطق ، ومن الأمثلة على ذلك كلمتا : «شهبرة وشهربة» فالصورة الأولى تسير آلية النطق فيها ابتداء من الشين من وسط اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى ، ثم يتجه النطق إلى الأسفل إلى أقصى الحلق (الحنجرة) لنطق « الهاء » ثم العودة إلى الأعلى إلى أدنى مخرج في الفم وهو مخرج « الباء » ثم الرجوع إلى الوراء لنطق « الراء » أما « تاء » التأنيث فإن لها حالتين : الأولى في حالة الوصل حيث تنطق « تاء » والأخرى في حالة الوقف حيث تنطق « هاء » فإن نطقت « هاء » فإن ذلك سيعود بآلية النطق إلى أقصى مخرج في الجهاز النطقي ، وإن نُطقت « تاء » فإن ذلك يعود بها من مخرج « الراء » إلى طرف اللسان وأصول الثنايا ، وهذه صورة لآلية النطق لصورتي الكلمة بدون هذه التاء باعتبارها زائدة :



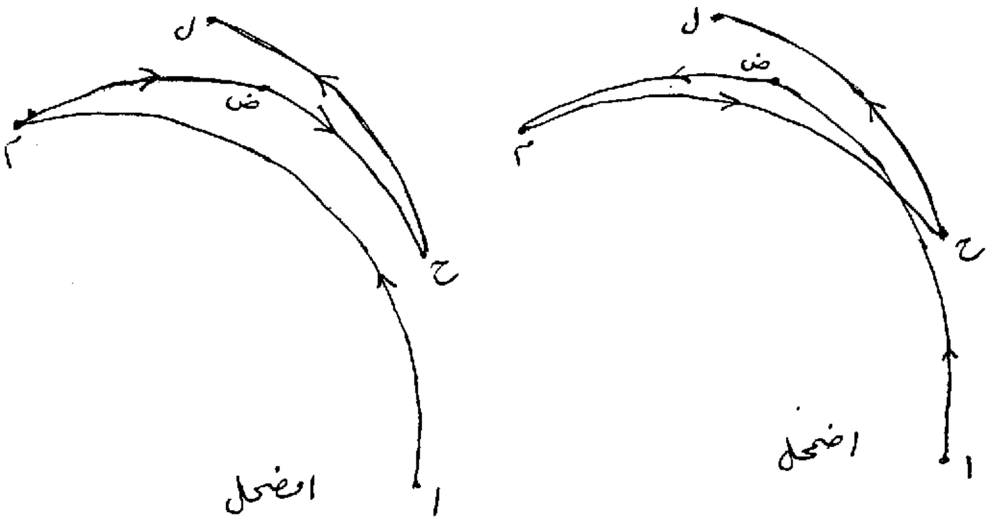
وفي صورة هذا المثال نجد ثلاثة اتجاهات « لشهبر » في حين أن « شهرب » تتم في اتجاهين فقط ، ولا شك أن في ذلك توفيراً للجهد المبذول وتيسيراً لعملية النطق .

ونضرب مثالاً ثانياً بكلمتي « صعبور وصعروب » مستبعدين في ذلك صوت « الواو » باعتباره علة لايشكل صعوبة في آلية النطق ، ويلاحظ ذلك في رسمها التوضيحي :



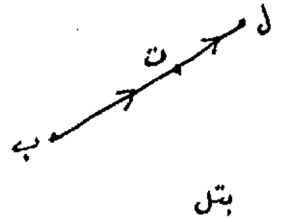
ومن الملاحظ في الصورتين أن الأولى لها ثلاث اتجاهات في حين أنها في الصورة الثانية تظهر في اتجاهين ، وهذا بلا شك يمنح الجهاز الصوتي سهولة في آداء الكلمة بالصورة الثانية ، وهذا يجعلنا نرجح أن تكون هي الصيغة المقلوبة ؛ لأن التطور الصوتي يسير في اتجاه السهولة وبذل أقل مجهود ممكن يتحقق في كلمة « صعروب » .

ثالثاً : قد يتساوى عدد الاتجاهات في آلية النطق في صورتي الكلمة الواحدة ، وكذلك طول المسافة ولكن القلب يجعل اتجاهات آلية النطق أيسر في الصوة المقلوبة ، ونمثل بصورتي : « اضْمَحَلَّ وامْضَحَلَّ » :

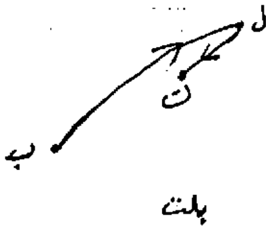


وفي هذا المثال نجد الاتجاهات في آلية النطق ثلاثة اتجاهات في كلا الصورتين ، والمسافة بين المخارج متساوية تقريباً ، ولكن نلاحظ أن الصورة الثانية (المقلوبة) أكثر تنظيماً في حين أنها في الأولى وإن تساوت المسافات والاتجاهات يظهر فيها مايشبه التقاطعات في اتجاهات آلية النطق .

رابعاً : قد يحدث القلب في بعض الكلمات التي يتجاور فيها صوتان أو أكثر في المخرج ، وكلما تباعدت المخارج في الكلمة كان ذلك أيسر ولهذا يرى القدامى أن من أسرار الفصاحة في الكلمة تباعد مخارج حروفها ، ومن الأمثلة على ذلك « بَتَلَ » حيث قلبت فأصبحت « بَلَتَ » وصورة ذلك كما يلي :



بتل



بلت

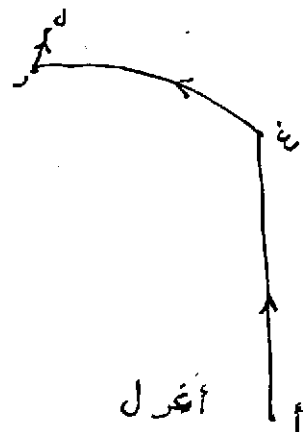
ومن الأمثلة أيضاً :

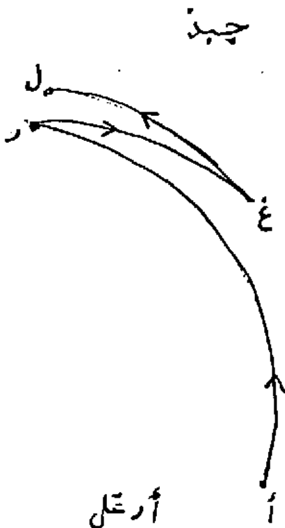




جذب

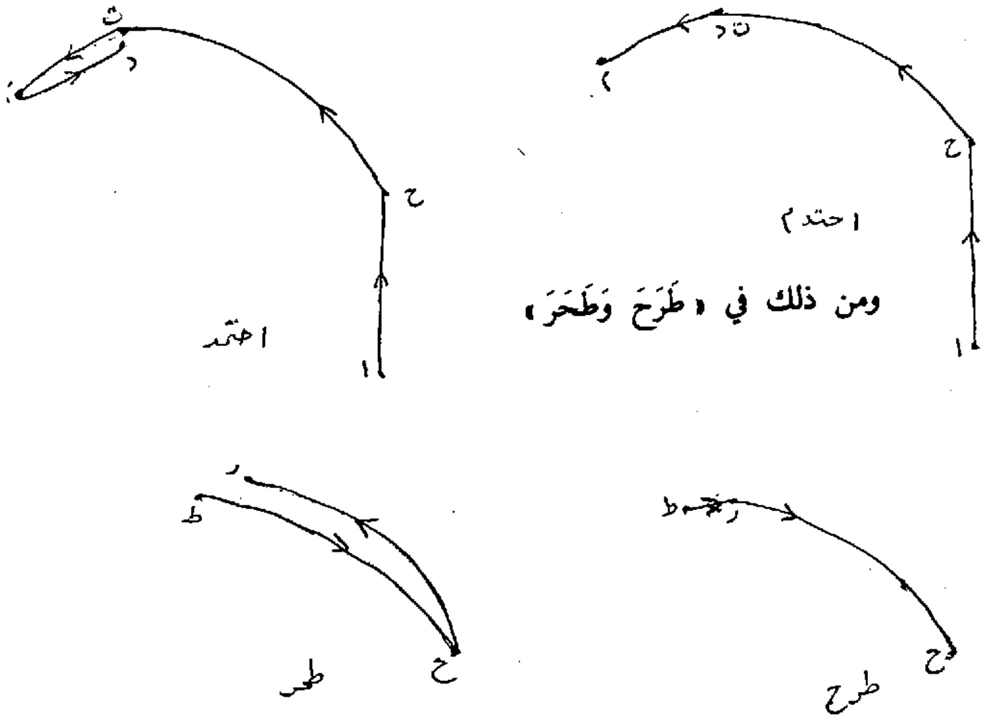
جبذ





وهنا نجد « اللام والراء » متقاربة في المخرج وتمت المباعدة بينهما عن طريق القلب كما يرى في الرسم التوضيحي .

ومن الأمثلة أيضاً « احْتَدَمَ واحْتَمَدَ » ومن المعلوم أن « التاء » « والدال » من مخرج ، فجاءت عملية القلب للمباعدة بين هذين الصوتين كما في الشكل التالي :



ومن ذلك في « طَرَحَ وَطَحَرَ »

هذا ماتوصلت إليه بعد طول نظر في عشرات الأمثلة ، وقد تكون هناك أسباب أخرى تتعلق بنوعية الأصوات وصفاتها ولم يتسن لي الوقوف على نتيجة هذا في الوقت الراهن ، ولعلي أجد مايقال فيه مستقبلاً فأضيفه إلى ماتوصلت إليه من نتائج في تفسير هذه الظاهرة .

أقول قولي هذا وأسأل الله أن ينفع بهذا العمل وأن يكتب له القبول ، والله المستعان وعليه الاعتماد والتكلان .

* مصادر البحث ومراجعة *

- أبحاث في اللغة العربية للدكتور داود عبده - نشر مكتبة لبنان ١٩٧٣ م .
- تاريخ اللغات السامية - لإسرائيل والفنسون . دار القلم - الطبعة الأولى ١٩٨٠ م
- التطور اللغوي التاريخي - للدكتور إبراهيم السامرائي . دار الأندلس . ط ٢ - ١٤٠١ هـ .
- التطور اللغوى - للدكتور رمضان عبدالتواب . نشر الخانجى بالقاهرة والرفاعى بالرياض .
- التطور النحوى - لبرجستراسر - ترجمة الدكتور رمضان عبدالتواب - نشر الخانجى .
- جمهرة اللغة - لابن دريد - تحقيق عبد العزيز الميمني - حيدر آباد الطبعة الأولى .
- الخصائص - لابن جنى - تحقيق على محمد النجار . دار المهدى - بيروت ط الثانية . مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
- دراسات في علم أصوات العربية - للدكتور داود عبده . مؤسسة الصباح الكويت .
- الدراسات اللغوية عند العرب - لمحمد حسين آل ياسين - دار مكتبة الحياة بيروت .
- ديوان الأدب - للفارابى تحقيق أحمد مختار عمر - القاهرة ١٣٩٤
- شرح الشافية - للرضى الاستر آبادى . تحقيق محمد نور الحسن وآخرين مكتبة الباز بمكة .
- شرح القصائد التسع - لابن النحاس . تحقيق أحمد خطاب . بغداد ١٣٩٣ هـ
- شرح الكافية - لابن مالك - تحقيق الدكتور عبدالمنعم هريدى - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى .
- الصاحبى في فقه اللغة - لابن فارس . تحقيق السيد أحمد صقر . عيسى البابى الحلبى . القاهرة .
- فقه اللغات السامية - لكارل بروكلمان - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب مطبوعات جامعة الرياض .

- فقه اللغة وسر العربية ـ للثعالبى ـ مطبعة الاستقامة ١٣٧١ .
- القاموس المحيط ـ للفيروز آبادى . مصطفى البابى الحلبى ـ ط الثانية ١٣٧١ .
- الكتاب ـ تحقيق عبد السلام هارون (الهيئة المصرية العامة للكتاب)
- كلام العرب ـ للدكتور حسن ظاظا ـ توزيع دار المعارف .
- لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر ودار بيروت .
- اللغة ـ لفندريس ـ ترجمة الدواخلى والقصاص (الأنجلو المصرية) ١٩٥٠ م
- اللهجات العربية فى التراث ـ للدكتور أحمد علم الدين الجندى ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس .
- اللهجات العربية ـ للدكتور ابراهيم محمد نجا ـ مطابع سجل العرب .
- المحكم ـ لابن سيده ـ تحقيق مجموعة من العلماء ـ نشر مصطفى البابى الحلبى ـ مصر ١٣٧٧٠ ـ
- المزهر في علوم اللغة ـ للسيوطى . تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين عيسى البابى الحلبى .
- مقاييس اللغة لابن فارس ـ تحقيق عبدالسلام هارون . الطبعة الأواى .
- المقتضب ـ للمبرد . تحقيق الدكتور عبدالخالق عضيمة . الطبعة الأولى .
- الممتع فى التصريف ـ لابن عصفور . تحقيق فخر الدين قباوة ـ دار الأفاق الجديدة ـ بيروت .
- المنتخب من غريب كلام العرب ـ لكراع النمل ـ تحقيق الدكتور محمد بن أحمد العمري ـ نشر معهد البحوث بجامعة أم القرى . ط أولى ـ ١٤٠٩ هـ .
- المنصف ـ لابن جنى ـ تحقيق ابراهيم مصطفى وعبدالله أمين . مصطفى البابى الحلبى .
- همع الهوامع ـ لسيوطى . تحقيق عبدالسلام هارون والدكتور عبد العال سالم مكرم . دار البحوث العلمية . الكويت .